العرب
الجمعة 2020/12/04
السنة 43 العدد 11901

المعارض تحيي المهن اليدوية المهددة بالاندثار في دمشق

حرفيون أبدعوا فنونا جديدة منها الرسم بحبات الزيتون والتمر

لا يقف الإبداع الإنساني عند حد معين، فمهما حالت دون تقدمه عقبات، سيجد المبدعون حلولا لتجاوزها مثل المهن الدمشقية القديمة التي عاشت منذ قرون، ورغم أنها تواجه في أيامنا ظروفا صعبة، إلا أن العاملين فيها أوجدوا لها بعض الحلول ووصلوا إلى فنون جديدة منها الرسم بحبات الزيتون والتمر.

إبداعات تراثية لا تموت

نضال قوشحة
كاتب سوري

دمشق - جذبت فكرة إقامة المعارض الفنية للعديد من المهن اليدوية القديمة والملابس الشعبية لمختلف الأماكن في سوريا أهل الحرف التقليدية في دمشق، فالعاصمة السورية تزخر بالفنون والحرف التي تتوزع ورشاتها في أحيائها وشوارعها القديمة.

ففي دمشق هناك مهن البروكار الذي تفردت به على مستوى العالم، وكذلك صناعة الفوانيس والآلات الموسيقية والعبايات والقبابيب والشالات والزجاج وصناعة الموزاييك والنقش على الخشب والطرق على النحاس.

بعض هذه المهن يعود للمئات من السنين، ومازال حرفيوها يدافعون عن بقائها بقوة، رغم المصاعب الكبيرة التي يعانونها خاصة في سنين ما بعد الأزمة التي بسببها هاجر العديد من هؤلاء، أو انقطعت أسباب أعمالهم، مما أثر بشكل واضح على وجود هذه المهن واستمرارها في الحياة.

> الحرفيون اجتمعوا في معرض فني ليقدموا العديد من إنتاجاتهم الجديدة التي صنعوها وفق الطراز التقليدي الشعبي الموروث

وتجاوبا مع مبادرة رسمية، اجتمع أهل هذه الحرف خلال أيام في معرض فني حرفي انتهت فعالياته في الثلاثين من الشهر الماضي وضمن فعالية أيام الثقافة السورية، في خان أسعد باشا الذي يقع في سوق البزورية المبتعد العشرات من الأمتار عن الجامع الأموي، ليقدموا العديد من إنتاجاتهم الجديدة التي صنعتها أناملهم وفق الطراز التقليدي الشعبي الموروث.

وشاركت في المعرض العديد من المهن منها صناعة السيوف والعود الدمشقي الشهير والأرابيسك والموزاييك والنول اليدوي والفخار ولعب الأطفال والزجاج وحياكة المناديل وخراطة الخشب والزجاج والعطور وحتى تجهيز الفول والحمص.

واحتوى المعرض على العديد من الفعاليات، فإلى جوانب التحف انتشرت الموديلات الصناعية التي ألبست أزياء تراثية تمثل العديد من المناطق السورية من شمالها إلى جنوبها، كذلك ضم المعرض صورا ضوئية لأشخاص يرتدون أزياء شعبية تخص بيئات متنوعة، وهي أشكال فنية تمثل التنوع الديموغرافي الكبير الذي تزخر به سوريا من حيث طرز وأشكال الملابس الشعبية فيها.

ما ميز المعرض، هو التعريف بعدد من اللوحات والأشغال التي حملت تطويرا مهنيا متميزا، فمشاركون في المعرض وزوار بيّنوا أن المعرض أوضح أن الحياة تستمر ولا يمكن وقف الإبداع فيها الذي يسير دائما نحو الأمام، فسمة الحياة الأولى هي التغير، وقديما قالوا إن الثابت الوحيد في الحياة هو التغير.

ورغم كل ما عاشته مدينة دمشق من ظروف حالكة خلال العشرية الماضية، وضيق العيش الذي مر على السوريين، إلا أن الحرفيين التقليديين استطاعوا المحافظة على مهنهم القديمة، بل وابتكروا في ذلك أفكارا إبداعية جديدة كانت غير معروفة سابقا، منها ما قدمه حرفيون فنانون فيها مما يسمونه الرسم بحبات التمر أو الزيتون وحبات الأرز ومخلفات الطبيعة وحجارة الفسيفساء.

الحرفي مازن شيبان يشارك للمرة الثانية في المعرض مقاوما بقوة الظروف التي تحيط بمهنته حاليا ويبتكر للمحافظة عليها الحلول التي يمكن أن توفرها البيئة المحيطة به.

يقول "شاركت في المعرض بالعديد من اللوحات التي تحمل الجديد سواء من حيث تكوين اللوحة أو استخدام الألوان أو المواد المكملة لها. فقد رسمت لوحات مجسمة لمكة المكرمة والمدينة المنورة من حبات التمر، وقد لاقت صدى طيبا من الناس حين مشاهدتها، فحبات التمر التي يرميها الناس بعد أن يأكلوا الثمرة، يمكنها أن تصنع فنا جميلا وراقيا".

ويضيف "سابقا أنجزت لوحة كبيرة مجسمة عن دمشق والحضارات التي مرت عليها عبر تاريخها الذي يمتد لمئات السنوات، وسميتها العيش المشترك وقد أنجزتها على امتداد سنة وشهرين استخدمت فيها 94 ألف حبة زيتون".

ويقول شيبان "في هذا العام أضفت جديدا هو تلبيس الفخار، كذلك أنجزت لوحة تمثل الحي الدمشقي بتفاصيله الكثيرة من بائع الفخار إلى محل الخضرة والألبسة والحارة العتيقة والبيت الأيوبي والمملوكي والفاطمي والدالية وشجرة الياسمين، وكذلك رسمت لوحات صغيرة وهي التي نستخدم فيها اللون الذي أصبحت أثمانه غالية، ولكي نتغلب على غلاء ذلك صرنا نستخدم موادا طبيعية، فوصلت إلى فكرة استخدام التبغ في اعتصار لون منه واستخدامه في التعتيق، كذلك استخدمت التبن لتجسيم بعض الأشغال وهنالك المزيد من الأفكار التي نعمل على تجريبها وسوف نشتغل عليها لاحقا".

وحضر فنانون حرفيون آخرون مثل صافي أحمد الذي يبدع من حبات الأرز أجمل اللوحات، والفنانة وفاء حسان التي تنجز اللوحات والأعمال الفنية من الفسيفساء الحجري من بقايا الحجر ومخلفات معامل الحجر وإعادة تدويرها.

وفي جانب آخر، يتابع الحرفي مأمون الحلاق عمله في خراطة الخشب على حفارة آلة يدوية قديمة ويقول "هذه الآلة تعمل على خراطة كل أنواع الخشب الذي نحتاج إليه، مثل الجوز والمشمش والزيتون والصفصاف والليمون".

ويضيف "هذه المخرطة هي التي تقوم بتجهيز الخشب بأنواعه ليصير تحفا خشبية بعدها، مثل جرن الكبة ومصب القهوة والمهباج. نحن نعمل على إنجاز هذه الأعمال لكي نحافظ على تراثنا ونوصله لأجيالنا القادمة".

ويبيّن الحلاق أن "هذه المخرطة كانت موجودة قبل وجود الكهرباء، وكنا نشتغل عليها كراسي القش والأرابيسك. هذه الآلة البدائية كانت المنطلق نحو وجود مخارط آلية حديثة تقدم إنتاجا أكبر، ولكننا رغم ذلك نحن متمسكون بتراثنا ونحافظ عليه بكل ما أوتينا من قوة وهي إلى الآن تمثل للبعض روح هذه الحرفة الجميلة".

أشغال يدوية متوارثة

ويأمل هؤلاء الحرفيون أن تتواصل مثل هذه المعارض وأن تنتقل إلى المدن السورية الأخرى في انتظار أن تسافر إلى الخارج لتنتشر منتجاتهم في أرجاء الوطن العربي والعالم.

البنطال يطيح بلباس القمباز التراثي في فلسطين

رام الله - ذاعت قصة طريفة نهاية سبعينات القرن الماضي لرجل مسن في إحدى قرى رام الله كان يرفض ارتداء اللباس التقليدي الفلسطيني "القمباز"، فاجتمع حينها كبار القرية واتفقوا على جمع مبلغ من المال لتفصيل القمباز لهذا المسن.

أوكلت المهمة إلى مختار القرية الذي توجه إلى محل خيّاط في السوق القديم بمدينة رام الله، والذي كان صاحبه يتميز بحياكة القمباز، الذي يأتي بقماشه بواسطة المستوردين من سوريا. خلال يومين كان القمباز جاهزا، حينها توجه وجهاء القرية إلى المسن الذي تفاجأ بزيارتهم، ليضطر لقبول هديتهم خجلا، والذي سيصبح يرتديه رغما عنه طوال الوقت.

انقلب المشهد اليوم، ولم يعد عدم ارتداء هذا اللباس يثير غضب كبار السن أو متوسطي العُمر، لكن في إحدى الزوايا القديمة بمنطقة رام الله التحتا بقي هناك محل خياطة "القديسي" الذي يحافظ على صناعة القمباز.

يقول محمد إبراهيم قطوسة صاحب محل الخياطة القائم منذ العام 1976 والذي يتميز بصناعة عدة أنواع من الألبسة التقليدية الفلسطينية "أصبح الطلب عليه نادرا جدا، فأحيانا في الأعراس وبعض المناسبات".

ويضيف قطوسة لوكالة الأنباء الفلسطينية وفا، أن القمباز يطلق عليه في بعض المناطق اسم "الكبر" أو "الدماية"، والذي يعرّفه بأنه رداء طويل مشقوق من الأمام، ضيق من أعلاه يتسع قليلا من أسفل، يُرَدّ أحد جانبيه على الآخر وجانباه مشقوقان قليلا.

ويتمتع القمباز بخاصية جيّدة نادرا ما تجدها في الملابس الأخرى وهي ميزة الراحة الجسدية والقدرة على التحرك في أي وقت وكيفما كان، وذلك لأنه واسع الحوض على عكس الملابس الأخرى التي ظهرت والتي في معظمها ضيقة في منطقة الحوض ولا تساعد مرتديها على التنقل والحركة بالشكل المطلوب.

وقمباز الصيف من كتان وألوانه مختلفة عنه في الشتاء، أما قمباز الشتاء فمن جوخ ويلبس تحته قميص أبيض من قطن يسمى "المنتيان".

في الأصل، كان القمباز شائعا في بلاد الشام جميعها، كان موحدا لأهلها، رغمَ أنّه اَختلف بحسب الطبقة الاجتماعية والاقتصادية التي كان ينتمي لها الفرد، فالفقراء ارتدوا قمباز الديما أو القباقيبو، أما الأغنياء قليلا فارتدوا قمباز الحرير البناتيّ، بينما ارتدى أبناء الطبقات العليا والأثرياء قمباز الغباني.ويرى الخياط سامي صوافطة أن لباس القمباز هو شيء جميل لاسيما أنه من الذاكرة التي تربطنا بالماضي، لكن في هذه الأيام لم يعد يرتديه سوى كبار السن و"ذلك نظرا لأنواع الألبسة المختلفة التي غزت الأسواق الفلسطينية وجعلتنا نترك صناعتنا وإرثنا ونتوجه إليها"، مؤكدا أن القمباز يعني له الإرث القديم الذي دثره الزمن.

> بقي القمباز صامدا خاصة لدى العائلات ذات المكانة المرموقة إلى حين أن تغير نمط الحياة وأطاح به البنطال العصري

وكان والد محمد قطوسة الذي توفي عام 2014، ينهمك طيلة الشهر في الطلب الكبير على حياكة القمباز في سنوات السبعينات والثمانينات، وكانت موضة إصلاح الملابس نادرة والتي تعمل بها الآن معظم محلات الخياطة، حيث كان الدارج حينها التفصيل أي تفصيل الملابس.

ويقول قطوسة "الخياطة لم تعد حرفة لها مكانتها، الخياطون كُثر، والمحال التجارية أصبحت تعج بالملابس المستوردة الجاهزة، ولم تعد خامة القمباز وقماشه من المواد المتوفرة، الموجود هو المقلد، الذي يستهلك ويبلى خلال مدة قصيرة".

ويرى قطوسة أن الصناعة التهمت فن الخياطة، والإبرة أصبحت تابعة للآلة بعد أن كانت لقرون آلة بحد ذاتها، واليوم الخياطون هم من يستطيعون تشغيل ماكينات "القص واللصق"، وهم من يظنون أنهم يتقنون تقصير البناطيل وحياكة أواخرها.

ولا يجد قطوسة وجها للمقارنة بين القمباز الذي حاكته يداه منذ عقود وتلك الملابس التي تغرق السوق، قائلا "صنع اليد يفوق موضة هذه الأيام جمالا، ويتفوق عليها ذوقا وفنا ونظافة ومخافة لله".

ويحرص قطوسة على الاستمرار في صناعة القمباز كونه يمثل التراث الفلسطيني ويعبر فيه عن أصله وتاريخه وجذوره في هذه الأرض.

ووفق قطوسة، أغلب زبائن هذه الأيام الذين يترددون على الخياط لطلب هذا اللباس هم من المغتربين كبار السن الذين يأتون للبلاد في فصل الصيف، ويعتقدون أن ارتداء القمباز واجب عليهم في المناسبات.

وكان القمباز هو اللباس العربي المسيطر، ومن ارتدى غيره من الملبس أشاروا إليه بالبنان كوصمة عار، وقبل حوالي ثلاثين عاما، بقَي القمباز صامدا في الداخل الفلسطيني، وخاصة لدى العائلات ذات المكانة الاجتماعية المرموقة، ورؤساء المجالس المحلية والوجهاء، إلى حين أن تغيّر نمط الحياة وأطاح البنطال بالقمباز.

ويفتقد محمد في هذه الأيام خامة القماش السورية الأصلية، والتي لم تعد تصل إلى فلسطين منذ عدة سنوات، بسبب الأوضاع هناك، حيث تحتم عليه استبداله بالقماش المستورد من كوريا والصين وحتى اليابان.

وفي سبعينات القرن الماضي وحتى نهاية الثمانينات لم تهدأ آلة الخياطة يوما عن حياكة "القمباز"، واليوم آخر "قمباز" صنعه كان بداية هذا العام، ورغم ذلك مازال معلقا في محله ولم يطلبه أحد.

هوية ووقار